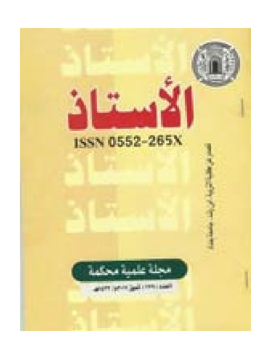


الشيخ الدكتور أحمد الوائلی .. حیاته وهمومه من خلال أشعاره

پدیدآورنده (ها) : الدکتور عبدالمطلب محمود سلمان؛ الدکتور غانم نجیب عباس

میان رشته ای :: نشریه الأستاذ :: السنة ۲۰۰۸ - العدد ۷۱ (ISC)

صفحات : از ۶۱۵ تا ۶۳۰

الشيخ الدكتور أحمد الوائلي.. حياته وهمومه من خلال أشعاره

الدكتور عبد المطلب محمود سلمان

كلية التربية / جامعة المثنى

الدكتور غانم نجيب عباس

كلية التربية / جامعة المثنى

المقدمــة :

مثّل الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله، علامة متميزة في حياته وبعد رحيله إلى جوار بارئه، من العلامات الدالة على العبقرية الفكرية والعلمية والدينية من جهة، وعلى القدرات والمواهب الأدبية الفذة التي تمتع بها، شاعراً بشكل خاص، من جهة ثانية، حتى كان في حياته مثالا للنبوغ ولتوجيه هذا النبوغ –فكراً وعلماً وأدبا – نحو رعاية شؤون العقيدة الإسلامية بما يخدم التطلعات الإنسانية عامة وتطلعات محبّي رسول الهدى وإمام الرحمة، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المطهّرين، بوجه خاص، حتى عرُف بمحاضراته الدينية العلمية المثيرة والمهمة، التي ما تزال تحظى بمكانة خاصة في نفوسمتلقّيها، وإن توقف عن مواصلة تقديمها من على المنبر النبوي الحسيني بغيابه الجسدي، فهي مدرسة علمية متنوعة المضامين والمعلومات القيّمة بحدّ ذاتها، وإن تحدّدت أهدافها ومراميها بخدمة هذا المنبر الشريف، وبدا فيها الشيخ الراحل ومن خلالها واحداً من أصدق المدافعين عن رسالة الإسلام والمحبيّن الأوفياء للرسول الكريم وآل بيته الأطهار، والمتمسكين الأشداء بمنهجهم وسيَرهم العطرة، حتى استحق لقب (أمير المنبر الحسيني) بكل جدارة وموضوعية.

وفي هذا البحث القصير، محاولة للتعريف بجوانب من حياة الراحل الكبير، طيّب الذكر الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمة الله عليه، وما انعكس منها في مسيرته الشخصية العلمية والأدبية، مدركين أساساً إنّ الإلمام الواسع بها لا يمكن أن يوفي الفقيد حقه، بله هذه الصفحات القليلة، إلا أننا رأينا إن جهد المقلّين هذا من شأنه أن يقرّب صورة هذا الرجل العالِم والشاعر إلى الأذهان، لاسيما عبر استجلاء جوانب من همومه الذاتية سواء بشدة تعلقه بمدينته (النجف الأشرف) أو بما واجهه من متاعب صحية جسدية ونفسية، جرّاء رحيله القسري عنها، ذلك الرحيل الذي فرضته عليه ظروف خارجة عن إرادته، مما سيتناوله هذا البحث مما انعكس في ما تركه الفقيد الكبير من أشعاره المنشورة تحديداً، وهو موضوع يستحق – في تقديرنا – الوقوف عليه، لأهمية ما يعرضه من إضافات إلى مسيرته الحياتية الحافلة بالعطاء الفكري والعلمي والأدبي، حتى رحيله عن دنيا الناس في تموز من عام ٢٠٠٣ الميلادية.

نسأل الله التوفيق في ما بذلنا وقدّمنا، خدمة لهدفين متصلين بعضهما بالبعض الآخر، هما هدف دراسة التاريخ في إماطة اللثام عن جوانب من خلفيات هذه الشخصية الفذة من جانب، وهدف الدراسة الأدبية في الوقوف على انعكاسات تلك الحياة على أحد جوانب إبداع الشيخ الوائلي رحمه الله ، ونعني

بـه أشـعاره التـي نظمهـا فـي مسيرة حياتـه، آملـين أن يكـون السـداد حليفنـا فـي بحثنـا.. ومـن الله العـون والسداد.

الشيخ الوائلي / سيرة حياة :

هو أحمد بن الشيخ حسّون بن الشيخ سعيد بن الشيخ حمود الليثي الوائلي. كانت ولادته في مدينة النجف الأشرف يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٧ هـ، أو ١٩٢٨م، وفيها نشأ وقضّى معظم سنيّ حياتـه، فـي كنـف والـده المرحـوم الشـيخ حسـون الـوائلي الـذي رحـل عـن الـدنيا سـنة ١٩٦٣م، ووالدتـه المرحومة الحاجّة بيبي بنت الشيخ جواد بن محمد حسين بن الشيخ علي زيني النجفي[1] .

وكان والده تاجراً للحبوب قضّى أكثر حياته في قضـاء (أبـي صـخير) قبل أن يتجه لخدمة المنبر الحسيني، وقد ربّى نجله (أحمد) تربية صالحة، وأدخله في السابعة من عمره لدى كُتّاب الشيخ عبد الكريم قفطان في مسجد الشيخ علي نواية، الكائن في سفح جبل (الطمّة) من محلة العمارة في النجف الأشرف، حيث تعلم القراءة والكتابة وقراءة القرآن الكريم، على جاري عادة الصبيان في ذلك الوقت، قبل أن ينتقل به إلى مدرسة حكومية حيث أدخله مدرسة الملك غازي الابتدائية، وأنهى الصبي أحمد الدراسة فيها عام ١٩٥٢م، لينتقل إلى مدرسة متوسطة منتدى النشر فينهي دراسته فيها، ثم ليدخل كلية منتدى النشـر فـي النجف الأشرف ويتخرّج فيها بتفوّق، وكـان مـن أقرانـه فيهـا الشـيخ محمـد حسـن آل ياسـين (الباحث والمحقق الثبت الراحل رحمه الله)، والشيخ أحمد المظفر والسيد صادق القاموسي رحمهما الله.

وقد التحق الشيخ أحمد الوائلي بكلية الفقه فور تأسيسها عام ١٩٥٨، وتخرّج فيها عام ١٩٦٢ حاصلا على بكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، ليكمل دراسته في الماجستير في معهد الدراسات العليا التابع لجامعة بغداد، وكانت رسالته قد حملت عنوان (أحكام السجون بين الشريعة والقانون)، ثم لينتقل إلى القاهرة للدراسة في كلية دار العلوم التابعة لجامعة القاهرة، ليحصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٨ عن أطروحته الموسومة (استغلال الأجير وموقف الإسلام منه)[2].

وفي أثناء وجوده في القاهرة التحق بالمعهد العالي للبحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، ودرس الاقتصاد على يد أساتذة متخصصين بارزين، من بينهم الدكتور علي لطفي الذي تولى منصب رئيس الوزراء فيما بعد، ليجعل من دراسته للاقتصاد عونا له في إعداد أطروحته للدكتوراه، لكون الأطروحة بحثت في موقف الإسلام من قضية اقتصادية وإنسانية بالغة الأهمية، تتعلق باستغلال العمّال وأيلجير من الأُجَراء لدى الغير، وما يتوجّب أن يحظوا به من ظروف عمل مناسبة وأجور مجزية،

وكيفية توزيع "فاضل القيمة / الأرباح" وأسس التوزيع، إلى غير هذا من الأمور الاقتصادية التي تتعرض لأمور العمل حقوقاً وواجبات، وما حددته التعاليم الإسلامية بصددها[٣].

أما دراسة الشيخ أحمد الوائلي الدينية (الحوزوية)فقد مرّت بخطواتها التقليدية المعروفة، حيث درس رحمه الله الأوليّات والسطوح وقليلا من المرحلة التي تلتهما والتي أهلّته لممارسة دوره المنبري، وكان من أبرز أساتذته في هذا المجال : الشيخ علي الثامر والشيخ عبد المهدي مطر والشيخ هادي شريف القرشي والشيخ علي سماكة والسيد حسين العاملي والسيد محمد تقي الحكيم والشيخ محمد حسين المظفر والشيخ محمد رضا المظفر وغيرهم. فيما تولى تدريسه رحمه الله في مجال الخطابة كل من : الشيخ محمد علي القسّام والشيخ محمد علي اليعقوبي والسيد باقر سليمون والشيخ مرتضى آل ياسين وغيرهم، وقد ساعدته مواهبه الشخصية وذكاؤه وتمتعه بحلاوة الصوت على البروز في هذا المجال، فضلا عن قدراته العلمية التي تحصّل عليها في خلال دراسته الأكاديمية العالية التي سبقت الإشارة إليها في السطور السابقة، حتى لقد وصفه أحد الباحثين بأن تلك الدراسة والتلمذة جعلت منه رحمه الله " خلافاً لسائر علماء المنبر كبيراً لا صغيراً وكبر " [٤] .

وإلى جانب نشاطه الديني في خدمة الرسالة المحمدية وخدمة آل البيت المحمدي الأطهار وتخليد مآثرهم الدينية والفكرية وجهادهم السامي من أجل العقيدة، كان للشيخ أحمد الوائلي دور كبير في الحياة الأدبية في مدينته النجف الأشرف وخارجها، سواء من خلال عمله في منتدى النشر – تلك المؤسسة العلمية الأدبية المعروفة الذائعة الصيت – إذ أصبح سكرتيراً للمنتدى عام ١٩٧٠، ثم تم انتخابه رئيساً له في عام ١٩٧٦، حيث شهد هذا الصرح الفكري في إبّان ترؤسه له نهضة موفقة بعد أن مرّ بفترة ركود نسبي إثر وفاة عميده وأحد مؤسسيه العلاّمة الكبير الشيخ محمد رضا المظفر، فكان من أبرز معالم نهضة هذا المنتدى إقامة العديد من الندوات الثقافية وإقامة أول معرض للكتاب النجفي، وتأسيس كلية الفقه بدلا من كليته السابقة، حيث حصل المنتدى على قرار بمعادلة شهاداتها على المستوى الأكاديمي مع أقرانها من الكليات الرسمية [٥] .

وكانت للشيخ الراحل مواقف فكرية وأدبية مشهودة من خلال المنبر الحسيني الذي صار عميداً له بحق، وكذلك من خلال مشاركاته في مهرجانات شعرية كبيرة مثل مهرجان الشعر العربي الذي عقد بُعيد المؤتمر الثالث لاتحاد الأدباء والكتّاب العرب في بغداد عام ١٩٦٥، الذي ألقى فيه رحمه الله قصيدته الشهيرة (رسالة الشعر) التي ضمّنها انتقاداته الصريحة للسلطة العرفية (إبّان حكم عبد السلام عارف)، وسلوكها الطائفي المقيت وتفريقها بين أبناء الشعب العراقي الواحد، والتي قال في ختام أبياتها :

ومشتْ تصنّفنا يدٌ مسمومة   متسنن هذا وذا مُتشيّــعُ
يا قاصــدي قتلَ الأخوّة غيلة   لموّا الشبّاكَ فطيرُنا لا يُخدعُ
غرس الإخاءَ كتابُنا ونبيُّنا   فامتدّ واشتبكتْ عليه الأذرعُ[٦]

وبعد التغيير السياسي الذي حدث في تموز عام ١٩٦٨، وإثر عمليات القمع والإعتقالات التي أخذت السلطة الحاكمة التي جاءت بصدام إلى رئاستها بممارستها، منذ عام ١٩٧٩ضد رجالات الفكر وعلماء الدين في المدن المقدسة،آثر الشيخ الوائلي رحمه الله أن يغادر مدينته الأحبّ إلى نفسه والأعلق

بقلبه (النجف الأشرف)والعراق كله، حيث توجّه إلى الكويت لمواصلة رسالته الفكرية والدينية من على منابرها، حتى إذا ما ارتكب النظام جريمة إعدام العالِم والمفكّر الكبير الشهيد السيد محمد باقر الصدر، طلبت عائلة الشيخ الوائلي من عميدها في أحد اتصالاتها الهاتفية معه أن يبقى في الكويت، خشية أن تطوله يد السلطة وإجراءاتها التعسفية لكنها إذ لم تتمكن منه تمكنت من أحد أنجاله (الشهيد محمد حسين) الذي كان يعدّ أطروحته لنيل الدكتوراه في الاقتصاد، حيث اعتقلته عام ١٩٨٢ وأعدمته بعد عام من اعتقاله، وهو الأمر الذي جعل الشيخ الراحل يؤثر الإقامة في الشام (دمشق) والتنقل منها إلى بعض دول الخليج العربي لأداء رسالته الدينية والفكرية التي آلى على نفسه أن يعيش من أجلها أو يفنى في سبيلها [٧].

وفي أعقاب سقوط النظام السابق في التاسع من نيسان عام ٢٠٠٣، عاد الشيخ الوائلي رحمه الله إلى وطنه العراق عليلا ليس له إلا أمنية أن يوارى الثرى –حين أجَلِه – في تراب مدينته الأحب النجف وإلى جوار الإمام الذي به تعلّق منذ ولادته إلى آخر لحظة في حياته، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، حتى إذا ما وافاه الأجل في منزله في مدينة الكاظمية ببغداد يوم الرابع عشر من تموز من العام نفسه (٢٠٠٣) كان له ما أراد، إذ شُيّع من أكثر من خمسة ملايين مواطن إلى مثواه الذي اختاره لجسده في حرم ضريح الصحابي كُميل بن زياد النخعي (رض) في الكوفة، حيث "حمى عليّ" الذي طالما تغنّى به وجعل منه نشيده الدائم في حِلّه وترحاله، وفي محاضراته وأشعاره، وحيث سجّل لنفسه ولأسرته الكريمة مواقف خالدة في سجّل الحب الغامر لبيت الطهر المحمدي (على صاحبه وآله أفضل الصلاة والسلام)، والتضحية السعيدة من أجل إعلاء كلمة الحق الرسالية التي ورثها الأئمة الأطهار عن جدّهم رسول الله الكريم وعن أبيهم الأسد الغالب وأمّهم الزهراء البتول.

هموم الوائلي من خلال أشعاره :

ظلّت مدينة النجف الأشرف قرينة مرقد الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، في فكر الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله وفي أشعاره على السواء، وقد ظلت همّاً من همومه الشخصية، حتى لكأنها الرحم الحاضن له – رحمه الله – بكليّته، جسداً وروحاً أو روحاً وجسداً على السواء، وهذا ما أظهرته أشعاره التي نظمها فيها، سواء طوال إقامته فيها أو رحيله القسري عنها، بحيث سنجده – بُعيد هذا الرحيل عنها مباشرة – لا يكتفي بالشكوى والألم لابتعاده الجسدي عن هذه المدينة المقدسة حسب، وإنما يشكو مرّ الشكوى من أوجاع مرَضيّة أصابت جسده، ومن آلام نفسية جمّة أصابت روحه، وهو ما سنحاول في هذا البحث عن نتبينّه من خلال قراءتنا لأشعاره، وعلى أساس تقسيمنا لهذه الهموم على محورَين :

- الأول/ هموم التعلّق بالنجف (المدينة – الرحم).
- الثاني/ هموم ما بعد الرحيل القسري عنها.

فإذا توقفنا عند تفاصيل المحور الأول، سنجد إن ديوان الوائلي الشعريّ بجزأيه، فضلا على ديوانه الثالث الذي جمع فيه أشعاره التي نظمها في آل البيت الأطهار، ووضع له عنواناً (الشعر الواله بحُبّ النبي وآله) قد حفلت بالعديد من المقاطع الشعرية، ثم بقصيدة مطوّلة كاملة في الجزء الثاني من ديوانه الشعري، تضمّنت كلها هذا المعنى الذي واشج بين المدينة وكوفتها وضريح نجمها الساطع أبداً تحت القبّة الذهبيّة الشامخة، واهتمامه الكبير بها، وانشغاله انشغالا روحيّاً وماديّاً بها، حتى ليمكننا أن نقرأ في الجزء الأول من الديوان قوله في قصيدة (وافد مصر) التي ألقاها في الحفلة التي أقامتها رابطة (منتدى النشر) في النجف الأشرف، ترحيباً بالمؤرخ المعروف عبد الفتّاح عبد المقصود، عام ١٩٧٧:

أ فتّاحُ هذا مربعٌ في تُرابه لحيدرةٍ جسمٌ وفي أُفقه فكْرُ
ثلاثٌ وعشرٌ من قرونٍ تصرّمتْ ومازال منه فوق هذا الثرى عطرُ
وأزمنةٌ مرّتْ بكلِّ صروفها يشدُّ بها زيدٌ ويدفعُها عمرو
تمرُّ عليه وهي سوداءُ غيمة فيمشي إليها وهو مُنبلجٌ بدرُ (٨)

ثم نقرأ له في ختام قصيدته التي كتبها عام ١٩٦٦ في ذكرى الراحل الشيخ محمد رضا الشبيبي، وجعل عنوانها (ذكرى الشبيبي)، قوله محيّياً (وادي الغريّ) وهو أحد الأسماء التي عُرفت بها مدينة النجف الأشرف، مشيراً إلى ما تضمّنه الوادي من ضريح شامخ للإمام علي (عليه السلام) ومن ثرى طاهر ضمّ في مقبرته المسمّاة بـ (وادي السلام) ملايين القبور التي انطوت على أشخاص وحّدهم الكفن وأزال الموت منهم كل شعور كان يملأهم في دنياهم الفانية :

تحيّة أيها الوادي الحبيب إلى رُبىً إليها النجومُ الزهرُ تنجذبُ
يلوحُ في لابَتَيها من أبي حسَنٍ وجهٌ ومن قسَماتٍ منه تختضبُ
غفتْ ملايينُ آمالٍ بتربتها السمّراء فهي على أبعادِها كُثُبُ
لو عن ثغور بها للثرى لغدتْ تلك المتالعُ فيها ينبتُ الشنَّبُ
توحّدتْ طبقَاتٌ في قرارتِها وهوّم الخصمُ جنبَ الخصم واصطحبوا
حتى تعابير كانتْ فوق أعينُهمْ ماتتْ فما ابتعدوا منها وما اقتربوا
أبا ترابٍ وفي تُربٍ ثوَيْتَ به تطوي الرضا أملاً قد غالَهُ الترب
وعندنا منه ما يحيا به أبداً مدى الدهور وعند الله يُحتسبُ (٩)

أما في قصيدته (دمعة وفاء) التي نظمها عام ١٩٦٨ في رثاء صديقه الراحل (محمد الخليلي)، والتي جعل منها مناسبة لاستعادة ذكريات طفولته وصباه وشبابه في هذه المدينة العريقة المقدسة، وتمنّيه أن يكون دفنه عند رحيله عن الدنيا في ترابها، فقد آلى إلاّ أن يذكر نجف آبائه وأجداده وإخوانه ذكراً مليئاً بالأوصاف التي أحبّها الشاعر الراحل، فهو يقول فيها مخاطباً مدينته:

نجفي يا خميلة في الفيافي وربيعاً لَزِيهٌ وسْط المُحولِ

وترابًا مُعنبراً لستُ أرضى   عن حصاه نجم السما ببديلِ
يا معاني العُلا ويا مهبط الفكرِ   ومحرابَ نابغاتِ العقولِ
يا مهادي الوثيرَ يومَ قدومي   ووساداً أرجوهُ يومَ رحيلي
نام فيه أبي وشيخي وإخواني جميعاً في ظلِّ حامي الدخيلِ

ثم ليقول في مستهلّ المقطع التالي للمقطع المذكور آنفا :

نجفي أفتدي خميلَكِ والأغصانَ فيه من زاحفاتِ الرمولِ
ومن الشوكِ راح يغزوهُ والسعدان يمتدُّ عُرضاً بطولِ

ويختمه بالدعاء إلى الله أن يحفظ مدينته ويصونها قائلا :

ربِّ صُنْ بلدتي حقائق فضلٍ   و قِها من مخالبِ التضليلِ (١٠)

وإذ ننتقل إلى قصيدته (الطيف العاتب) التي ضمّها هذا الجزء من ديوان الراحل الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، والتي كان رحمه الله قد أرسلها من منفاه الاختياري (دمشق) إلى نجله محمد حسين عام ١٩٨٠، فسنقرأ في أبيات منها ما أطلقه من مشاعر حنينه الجامح إلى (وادي الغريّ) وقبّته الذهبية وما يحمله لهذا الوادي من صورٍ جميلة راسخة في أعماقه، فهو يقول في عدد من أبيات هذه القصيدة :

حنيني إلى وادي الغريِّ وقُبَّةٍ   يُغازلُها نجمُ السما ويُلاعبُ
عليها لعابُ الشمس تبرٌ وتحتها   أئمّة عرفانٍ وحبرٌ وراهبُ
تقاةٌ أصابوا من عليّ أخا هوىً   وحبر تقىً، والصالحات نسائبُ
وتاقوا إلى المثوى الأخير بجنبه   ونِعم عليّ في الشدائدِ صاحبُ
فلا زلتَ يا وادي الغريّ بجنة   تمرُّ عليها الغادياتُ السواكبُ (١١)

وثمة مقطع آخر يمكننا التوقف عنده في قصيدته (تحية عيد إلى أولادي)، التي ضمّها الجزء الثاني من ديوانه الشعري، ضمّنه مشاعره الصادقة نفسها عن مدينته المقدسة، ولاسيما ما ضمّه ثراها الطاهر من رموز دينيّة عظيمة كالإمام عليّ عليه السلام وضجيعَيه كليم الله (موسى) وخليل الله (إبراهيم) عليهما السلام، فضلا عن أهميتها الفكرية والعلمية في التاريخ الإسلامي، فهو يقول فيها مخاطباً أبناءه:

بَنيَّ على بلدٍ ضمَّكم   ملاب الشذى في السنا الأروعِ
عرين عليّ ومأوى أبي   ترابٍ ودار الحمى الأمنعِ
سمات الكليم وطيف الخليل   على ذَكَواتٍ به أربعِ
ووادٍ على تُربه أمرعتْ   قرائحُ للملهم المُبدعِ
ومعقل للنفرِ النابغينَ   ومحراب للسُّجَّدِ الرُّكّعِ
ورمل تسيلُ عليه العصورُ   بتاريخها الألقِ المُبدعِ
وروحٌ من ابن أبي طالبٍ   تمدّ الخضيلَ على البلقعِ (١٢)

وإذ يختتم الشيخ الوائلي رحمه الله قصيدته (آهة في رثاء رفيقة العمر)، التي نظمها في تأبين زوجته وحمّلها الكثير من صادق مشاعره الإنسانية تجاهها، نقرأ في مقطعها الأخير وصاياه إلى الفقيدة

في مثواها بأن توصل تحياته وسلامه إلى أرواح ذويه الراحلين المدفونين في أقدس تربة وأطهرها إلى جوار إمام الحق علي بن أبي طالب عليه السلام، كما نقرأ وصفه الدقيق لتلك التربة الطاهرة وللإمام علي "حامي حماها" فهو يقول :

هنيئاً بمثواكِ الكريـم بتُربـةٍ بحيثُ مُجيرٌ جارُه لا يُسَلَّمُ
وجارُ عليٍّ بالحمى وأبو الحمى سَرِيٌّ يُحيّي الوافدينَ ويُكرمُ
دفنتِهِ أهلي ورهطي فكلُّهم لدى تلَعاتٍ بالغريَّين نُوَّمُ
صِلِيهمْ وقولي رحمةً من مُخلَّفٍ يُقيمُ قليلاً بعدكمْ ثمّ يَقْدُمُ
وإنْ سألوا عنّي فقولي حبيبُكم يُصلّي على أجداثِكم ويُسَلِّمُ
سأبقى إلى أن نلتقي بثرى الحمى وقلبي لصيق بالترابِ مُتيَّمُ (١٣)

فالوائلي الشاعر هنا لا ينفكّ يجدد ذكر انتمائه الحميم لتربة النجف الطاهرة والتصاقه بها، وهي تربة لا تعدلها – في حسبانه –تربة طاهرة اللهم إلا تربة الكعبة المشرّفة والمدينةالمنوّرة حيث بيت الله ومثوى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطاهرين، فضلا عن شعوره الدائم الذي طالما كرره في قصائد أُخَر بقرب أجله والتحاقه بذوي قرباه في مثاويهم القريبة من حمى عليّ عليه السلام.

وحين يخاطب الراحل طيّب الذكر الشيخ الدكتور أحمد الوائلي في قصيدة أُخرى (رسالة إلى صديق)، صديقاً له من أبناء مدينته المقدسة، يُعيد التغنّي بالمدينة بأجمل العبارات، وبانتمائه إلى رمز المدينة الشامخ وعنوان شرفها الإمام علي عليه السلام، كما يعيد ابتهاله إلى العلي القدير بأن يحفظها ويصونها من عاديات الظروف الصعبة، فهو يقول في أبياتها الختامية :

نسَبٌ بيننا وشيجٌ أبا... وادٍ جنب الغريِّ وطُورُ
ورمالٌ لنفحة القدس فيها ساجداتٌ على ثراها العصورُ
وانتماءٌ لحيدرٍ نَمَّ عنهُ الدمُ والفكرُ والهوى والشعورُ
يالَهفي بأنْ نعودَ لواديهِ فَواديهِ مهدُ علمٍ ونورُ
فنُنَقّي نفوسَنا في غديرٍ لِعليٍّ فهو النقيُّ الطَّهورُ
ونُرَوّي مشاشَنا من نميرٍ لم يُضارعْهُ ما علمتَ نميرُ
ونشدُّ الغداة بالأمس صنواً وإنْ اغتالَ يومَنا تكديرُ
حفظتْكَ السماءُ يا روضَنا الخصبَ نديّاً وإنْ ألحّ هجيرُ (١٤)

أما في آخر قصائد الجزء الثاني من ديوانه، التي حملت عنوان (حنين) والتي كتب الراحل الوائلي تحته عبارة : " ذكريات إخوان بالنجف الأشرف"، فقد خاطب أحبّته من رفاق طفولته وشبابه ودراسته، وأبدى حنيناً طاغياً إلى مرابع مدينته وإلى عهود صباه فيها، حتى إذا ما قارَب على ختامها أفرد الإثني عشر بيتاً الأخيرة من أبياتها الستة والستين لمخاطبة رمال النجف وتذكيرها بما تشكلّه بالنسبة له من ذكريات حميمة ومن مواقف روحية وأحلام جميلة، فهو يقول :

ويا أيها الرملُ المهوّمُ بالحمى أعندكَ من تلك العهود تذكُّرُ
وهل حفِظتْ حبّاتُكَ السمْرُ شدوَنا وظلّتْ كما كُنّا نُخطّطُ أسطرُ ؟

بجنبِ حصىً ظنّ السما أنّ نجمَهُ تساقطنها إذ رآها تنُوّرُ
غداة الهوى المشبوب في صبَواتنا حِسانٌ تخيلّنا رؤاها وجؤذرُ
يضجُّ الهوى فينا وواللهِ إنّه لأنصعُ من ماءِ السماءِ وأطهرُ
وتُسهِرُنا حتى الصباح أوانسٌ بأفكارنا لا كاعباتٌ ومِعصَرُ
ليالٍ بها كلّ النجوم تبرّجتْ تقولُ بها للمُغرياتِ معسكرُ
وتحسدها والدهرُ يحسدُ بعضَه جميعُ الليالي وهي بالأُنس تزخرُ
فلا زال يا عهدَ الصبا راعف الحيا يُجلّي شفيف الأفق منكَ ويمطرُ

ثم يخاطب تلعات النجف الأشرف ويتمنى عليها أن تشقّ له مضجعاً يستقرّ جسده وذكرياته الحميمة فيه، إلى جانب حبيبه الوصيّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فهو يقول :

ويا تلعات بالغريّ تحضُنُني مغاربُ في إشراقها منك تفخرُ
وشُقّي لهيكلي جنبَيْكِ مضجَعاً تنامُ به جنبَ الوصيِّ وتُحشَرُ
وحسْبُ أمانينا رضىً وكرامة بأنّ الذي نهفو لمثواهُ حيدرُ (١٥)

فإذا انتقلنا – مؤقتاً – إلى ديوانه الأخير (ديوان الشعر الواله في النبيّ وآله)، وقد أجلّنا النظر في قصيدة مطوّلة من بين قصائد الجزء الثاني آنف الذكر لأغراض فنيّة، فسنقف عند مقطع من قصيدة (من وحي شهداء عذراء) من ديوانه الأخير، نظمها رحمه الله وغفر له بعد زيارة لضريحهم سنة ١٩٨٣، حمّل الشيخ الوائلي أحد مقاطعها مشاعره التي قارن فيها بين أرض (عذراء) هذه التي ضمّ ثراها أجداث أربعين شهيداً من شهداء الإسلام، بينهم عدد من صحابة الإمام عليّ عليه السلام، وهي تقع على مشارف مدينة دمشق، وبين أرض النجف الأشرف مدينة روحه، التي طالما تغنّى بها في كل حين، فهو يقول في المقطع المقصود :

عذراءُ راودَني زعمٌ برملكِ عن رملِ الغريّ فلم أُذعنْ لما زعموا
فقد تكرّمَني أرضٌ وأُكرِمُها لكنّ وادي الحمى عندي هو الحرَمُ
أرض النجوم وما بالأفق منتَجَعٌ أغنى نجوماً ولا زهرٌ ولا سُدُمُ
ومهد فكرٍ وإبداع وملحمةٍ بها البطولاتُ بالأخلاق تلتحمُ
وادي الغريّ ومأوى روح حيدرةٍ وجنّةٌ حولها الأرواحُ تلتئمُ
ما زلتُ أسرجُ أفكاري بشُعلتهِ وأبتدي فيه أورادي وأختتمُ (١٦)

ولم يكتفِ الشاعر الشيخ بالمقارنة التي عقدها بين المكانَين، بل نراه يختتم هذا المقطع بتأكيد اتخاذه (وادي الغري) سراجاً لأفكاره ومبتدأ أدعيته وصلواته الروحية وختامها، تعبيراً عن شدة تعلّقه به وبترابه وبرمزه الروحي العظيم (حيدرة) عليه السلام.

والآن؛ بالعودة ثانية إلى الجزء الثاني من ديوان الدكتور الشيخ أحمد الوائلي الشعري، والتوقف التفصيلي أكثر عند قصيدته المطوّلة (إلى النجف الأشرف / بلدي الحبيبة)، يسترعي انتباه المتلقي أول ما يسترعيه وضع الشاعر الراحل عليه الرحمة عبارة الإهداء "إلى النجف الأشرف" في موضع القمة من ثريّا القصيدة (عنوانها)، خلافاً للعرف السائد في وضع عبارات الإهداء بعد العنوان، وهو ما فعله الشيخ

نفسه في جميع قصائده إلا في هذه القصيدة، وهذا يكشف –بحدّ ذاته – عن معنى داخلي مضمر في أعماق الشاعر يؤكد مدى ارتباطه بمدينته وعمق هذا الارتباط، فهي باسمها المخصوص وليس سواها من أرض العراق أو غيره، المعني بعبارة العنوان "بلدي الحبيبة" أو "بلادي الحبيبة" مثلما جاء في فهرس الديوان، وهي العبارة الأصحّ والأكثر دقة مما جاء في أعلى القصيدة نفسها.

وقد أراد الشاعر أن يبدأ القصيدة بالعتاب، فإذا به يندفع لاشعوريا – بالطبع – نحو سيل الذكريات التي تملأ نفسه وما جرفه معه من حنين عاصف في دخيلتها، فهو يقول في مستهل القصيدة :

بعض العتاب فما تركتُ وفائي ورؤاكِ مُشرقةٌ على أجوائي
تجتاحُني وقلقاً وتأسرُ مسمعي وقْعاً وتغمرُني من الأضواءِ
قد عشتُها نغَماً ولمّا أنْ نأتْ عنّي دأبتُ أعيشُ بالأصداءِ
صُوَرٌ أقمنَ بمُقلتيَّ إقامةَ المعمودِ في رَبعِ الحبيبِ النائي
يزدَدن حُسناً كلّما بعُدَ المدى ويلفّهنّ البعدُ في لألاءِ
وترابُ أوطاني ربيعٌ أخضرٌ ولو انّها في بلقعٍ جرداءِ
صافحتُه بالخدِّ عندَ ولادتي ورسمتُ منه بجبهتي طغرائي

ويعلن في مقطعها الثاني عن مبلغ أساه ولأوائه لبعده عن بلده – أو بلدته النجف – وتمنّيه أن يكون له من أضلعه سوراً يصونه من الأذى والبلاء، لأنه بالنسبة له يعني "كلّ أهله "الذين يحنّ إليهم، ليُنهي هذا المقطع بالقول :

إبعثْ قليلاً من شذاكَ فإنّني أستافُ عطرَ رمالِكَ العفراء
أنا بعضُ تربِكَ بِنتُ عنهُ بُرهة وغداً يطولُ لدى ثراكَ ثوائي

فهو إذاً متعلق بثرى وطنه (نجفه) تعلقًا يحمل معنى التجذّر من الولادة حتى الممات، فهو وإن نأى عن ترابه وتألم لهذا النأي الاضطراري، لكنه يواسي نفسه وبلده بكونه سيدفن إثر رحيله الأبدي في هذا التراب نفسه فتطول مدة ثوائه فيه وعناقه له حتى قيام الساعة.

ويروح الشاعر الشيخ يستعرض ذكرياته واصفاً بلده (نجفه) بأبهى الأوصاف وأزهاها، إذ طالما سُمّيت بطاحها الناعمة الرمال باسم "وجنة العذراء"، وكانت مسارح الظباء وحدائق لشقائق النعمان ومواقع للأديرة المسيحية وحانات رتع فيها الشاعر (أبو نواس)وصحبه المُجّان، وطالما ازدهت بجداول مياهها العذبة الرقراقة، وببساتينها الوارفة الأشجار والنخل، حتى ليحسبها المتلقي الجنة الأخرويّة التي وعد الخالق تعالى بها المؤمنين، فهي :

بلدُ النخيل السامقات تخايلتْ مزهوّةً بالقامةِ الهيفاءِ

....

وهي أيضاً :

بلدي تعانقَ والنجوم همومه وترود كلّ بعيدةٍ عصماءِ
نبتتْ بتربته العلومُ وأنجبتْ ثُلَلاً مُميّزةً من العلماءِ
صنعتْهُ مدرسةُ الوصيِّ ونوّعتْ مَلَكاتِهِ وبَنَتْهُ خيرَ بناءِ

بلدُ الفصاحةِ والسماحةِ والندى ومُعرَّسُ الأبـرارِ والفُقَهـاءِ

....

وإذ يصل إلى المقطع الأخيرمن هذه القصيدة المطوّلة، فإنه سرعان ما يبدأه بالقسَم "بحق رمل" وادي الغريّ الذي طالما اشتاق إليه الشاعر الشيخ في منفاه الاضطراري، بعد أن تعرّض للمضايقات من السلطة الحاكمة، وتعرّض أنجاله للملاحقة والسجن، فيقول :

وادي الغريّ وحقّ رملِكَ وهو ما أشتاقُهُ في غدوتي ومسائي

لو تستبينُ على البعاد مشاعـري ملهوبةً كالجمـر في الظلماءِ

وصبابتي وأنا القصـيُّ عن الحمى وبمُقلتَـيَّ تلفُّـت الغـُرباءِ

لحزنتَ لي ولَحَنَّ رملُكَ مثلما ضـجّ الحنينُ بأدمُعـي ودمائي

فأنا ابنُكَ البَرُّ الوفـيُّ وفِطـرةٌ عطفُ الأبِ الحـاني على الأبناءِ

....

لينتهي إلى أن يذكر – بما يشبه تذكير هذا الوادي – كونه من طيور خمائل مدارس العلم وبأن له في ثرى ترابه جذوراً موغلة "من أعظم الأجداد والآباء"، وكونه سيكون منتهاه في ترابه مع أصوله وفروعه الأُسَريّة :

وبـراعمٌ لي في حشاكَ دفنتُهم كانوا النسيـجَ البِكرَ من أحشائي

وارَيتُ فيهم للطفولـةِ بسمـةً ودفنْتُ فيهم بهجتـي وهنـائي

فلديكَ أصلـي والفـروعُ وإنني لَلاحقٌ بهما بـدون مـراءِ (١٧)

ومهما بدت عواطف الشاعر الشيخ الوائلي رحمه الله تجاه مدينته (النجف الأشرف) مزدحمة بالصور والمعاني الصادقة المتدفقة، لكنه لم ينسَ ضرورات البناء الفني اللازم لجعل هذه العواطف تظهر إلى المتلقين بأكمل أساليب البناء الشعري المعروفة، من حيث الاهتمام بالأوزان الخليلية والقوافي التي أضافت إلى المشاعر الجيّاشة في أعماق نفسه أبعاداً جماليّة حاول من خلالها أن ينأى بأشعاره عن المباشرة والسطحيّة، وعن العبارات النثرية التي تقلل من مستوى "شعريتها" المطلوبة، لاسيما أن الشيخ الوائلي رحمه الله قد أدرك هذه الحقيقة وأكده في مقدمة هذا الجزء من ديوانه، إذ كتب : " سيبقى الشعر ليس مجرّد ردّ فعل على الحدث بل حمّال هموم وحليف رسالةٍ وغصن حيناً وسوطٍ حيناً آخر" (١٨).

أما إذا انتقلنا إلى المحور المضموني الآخر الذي عكسته أشعار الشاعر الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله، لاسيما في الجزء الثاني من ديوانه الشعري، ونعني به محور (هموم ما بعد الرحيل القسري عن مدينة النجف الأشرف)، فسنقرأ هذا متمثلاً بأجلى صوره ومعانيه في أساه وشعوره الغامر بدنوّ أجله، وقد أثقلت الأمراض جسده وأحسّ بالعناء من طول رحلته في الحياة – مثلما أبدى من أحاسيسه بهذا الاتجاه وإن لم يتجاوز من العمر الخامسة والسبعين عند رحيله إلى بارئه – فضلا عن ألمه لاضطراره للتغرّب عن بلده وعن رموزه الدينية الأحب إلى نفسه : الأئمة الأطهار (علي والحسين

عليهما السلام)، وهذا ما يظهر أولاً في قصيدته المطوّلة الأولى من ديوانه الثاني (إلى الكعبة الغرّاء)، التي قال في أحد مقاطعها في إطار مناجاته خالقَه عزّ وجل وبثّه هموم قلبه:

ويا ربّ روحي أثقلتْها همومُها وأرهقها حزنٌ وطولُ عناءِ
وأوحشَها فقْدُ الأحبّةِ فانتهتْ إلى منزل قفر الفناءِ خواءِ
وأنتَ عطاءٌ لا حدودَ لفيضهِ وقُربٌ من الداعينَ ليس بناءِ
....

ثم يناجي ربَّه في مقطعها الأخير قائلا:

ولي وطنٌ فيه أذوبُ وصبيةَ بنيتهُمُ من أدمعي ودمائي
وكلُّهُمُ قد مسَّهُ الضرُّ والأذى وبات على قيدٍ من السُّجناءِ
بكفّكَ يا ربّ المفاتيحُ كلُّها وناصيةُ الأشرارِ والشُّرَفاءِ
وأنتَ وليّي فاكشفِ الضرّ والأسى فما ضَرَّ لو أكرمتَني لولائي
وما ضَرّ لو أرسلتَ منك إرادة لتُنهي احتكامَ القيدِ بالأُسَراءِ [١٩]

في حين نقرأ له في قصيدة (رسالة للحسين) بثاً لهمّ آخر من همومه الإنسانية، يتمثل بكونه صار يعيش بعيداً عن المراقد المقدسة التي عاش عمره مرتبطاً بها أشد ارتباط، ولاسيما وهو أحد أبرز خدم المنبر الحسيني، لا بل مَن استحق لقب (أمير المنبر الحسيني) عن جدارة، فهو يخاطب الإمام الحسين عليه السلام في هذه القصيدة – الرسالة، التي لم يشأ منذ عنوانها أن يوحي ببُعده المكاني عن إمامه فلم يستعمل أداة الجر (إلى) التي تفيد الإشارة إلى المسافات الطويلة، بل الحرف (لـ) المرتبط بالإمام الحسين عليه السلام، فيقول في مستهلها:

دأبتُ أزورُكَ في كلّ عام وألثُمُ تربَكَ يا ابنَ النبي
ويا ابنَ عليّ ويا ابنَ البتول ويا ابنَ ذرى المجدِ من يثربِ
....

ثم ليروح يشرح لحبيبه الإمام الحسين في هذه القصيدة – الرسالة سبب عدم معاودته زيارة ضريحه الطاهر، وما فعله بمقابل ذلك، قائلا :

ومرّت سنينٌ ولم أجتلي سماتكَ في روضِكَ الأطيبِ
بعيدٌ ضريحكُ عن راحتي ولستَ بعيداً على مَطلبي
وحين نأى الطفُّ زرتُ الشآم و حدتُ لراويةٍ مركبي
إلى جدثٍ فيه منكَ المثال تحدّر من جذركَ المُنجبِ
فأنتَ أراكَ بكلّ علاكَ هنا قد تجسّدتَ في زينبِ [٢٠]

وفي قصيدته (رسالة للأمّة) نقرأ شكواه الحافلة بالمرارة والأسى، إذ وقف على قبور الرسول الكريم محمد وآله الطاهرين في المدينة المنوّرة، وراح يرثي لحال الأمّة المتردّي، وقبل ذلك لحاله وقد أتعبته السنون والظروف القاسية التي عانى منها ما عانى، فهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى نفسه أوّلا فيقول :

خُذْ من الصالحاتِ ما تستطيعُ ما تبقّى في الليل إلاّ الهزيعُ
ذهبتْ روعة الصباح وسحرُ الليل وارتدّ للسكونِ النزوعُ
وتساوى ليلي محاقاً فما فيهِ من النجم غيبُهُ والطلوعُ
والأماني المُخَصّبات تحوّلنَ لصحراءَ ليس فيها ربيعُ
ولقد كنتُ أستعينُ بأحلامي إذا هزّ واقعي ما يَروعُ
فجفاني الكرى فلا وسَنٌ أهربُ فيهِ من واقعٍ أو هجوعُ

في حين يقول في المقطع الثاني :

يا عوادي الزمانِ أكبرُ منّي بعضُ هذا فكيف هذا الجميعُ
أنا بُقيا ضَعافِتٍ اقتدارٌ وأنا واحدٌ وأنتِ جُموعُ
إنّ عاراً على شموخ المواضي جُرحُ عزلاءَ ما عليها دروعُ
اعصفي أيها العوادي فما أنتِ كيانٌ يصدُّهُ التقريعُ

....

أيها النفْسُ بعضُ هولِكِ فالدنيا وقيذٌ من الأذى أو صريعُ
أُمنياتٌ كذوبة وفعالٌ نُوَبٌ كلُّها وبَرقٌ خَدوعُ
الذليلُ المَهينُ يشبعُ فيها والسَّريُّ الأشمُّ فيها يجوعُ

....

حتى إذا ما راح يُعدّد أسباب شكواه من ضياع المقاييس الحقيقية والمسالك المعوجّة التي صارت ديدن الذين يدّعون انتهاجهم سبيل الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، والعقوق الذي نال آل الرسول من هؤلاء وشيوع ما سمّاه "لعنة الغباء وروح العصبيّات" المقيتة بين المسلمين، رجع إلى رحاب الأرض المباركة ليخاطبها حزينا ليقول في ختامها:

يا رحاباً آثارُ جبريلَ فيها وسجودٌ أطيافُها وركوعُ
وخشوعٌ لمجتبى ولسجّادَ وفقهٌ للصادقينَ بَروعُ
وصدى الذكر والتلاوةِ في المحرابِ من عهدِ فاطم مسموعُ
وصبيبٌ من رحمةِ اللهِ يهمي وشذى الوحيِ والجلال المريعُ
ستعيشين والخلود ويبقى لكِ روضٌ بوَعينا مزروعُ
وسنبقى نستافُ تُربَكِ طيباً وتُروّي ثَراكِ منّا دموعُ[٢١]

وتستوقفنا قصيدته (رثاء ضرس) لما حملته من أسى ومرارة تجاه التردّي الذي صارت عليه القيم والمقاييس الحياتية، فهو يتخذ من ضرسه الذي كان عليه أن يقلعه وسيلة إنسانية يبثها شجونه وبرَمه بالحياة، فضلا عن انتقاداته للمظاهر المزيّفة التي غمرتها، من دون أن يغفل – رحمه الله – إبداء السخرية والتهكم مما يجري من حوله، ومشاعر الوفاء لا لضرسه الذي فارقه بعد (٥٠) عاماً من الرفقة حسب، بل الوفاء لصحبه ورفاق مسيرته الذين فارقهم مكرهاً، فهو يقول في مستهل قصيدته هذه :

لرحيل بعضي دمعـة في موقي ولُهـاثُ نبض بالفـؤاد خفَوقِ
ورحيلُ بعض المرءِ يحُـزنُ بعضـَـهُ الباقـي ويُؤذنُـهُ بقربِ لُحوقِ
يا لثّتي الثكلى خـَلا بـكِ مقعدٌ من أبيضٍ حلـوِ السماتِ رشيق
صلب الشكيمـةِ من رماحكَ طاعنٌ مُتمـرّسٌ بالقطـع والتمـزيقِ
………………….
سنّي لَيحزنُني وإنْ يكُ مؤلمي أنْ تغتـدي عنّـي وأنتَ رفيقي
خمسون عامـاً أو تزيدُ ونحن في دربِ الحيـاةِ معاً رفاق طـريقِ
ذقتَ الحيـاةَ معي تَعُبٌ بحلوِهـا وبِمُـرِّهـا من ناضـبٍ وغـَدوق
………………….
ثم يخاطب ضرسه في مقطع آخر من القصيدة، ولعل الشيخ الراحل رحمه الله قصد أن يتهكّم على الذين يجدّون ويتدافعون في الحياة من أجل أشياء تافهة سرعان ما تزول، فهو يقول بهذا المعنى:
سنّي أتعلـمُ أنّ سعيـَكَ خاسـرٌ تشقـى وغيـرُكَ رابـحٌ بالسـوق
ما أنتَ غيـر رحى تدورُ لغيرها وسـواكَ يأكلُ صفـوَ كلّ دقيـق
وجميـعُ رزقـِكَ بالطعـام بقيّـة محشـورة في حفـرةٍ وشقـوق
فكأنّكَ المثَـل الصـريح لمعشر يسعـَون لكنْ سعيـُهم لخفـوق
………………..
أمـا فـي ختـام هذه القصيدة فيخاطـب الشـاعر الشيخ ضرسـه مؤكداً روح الوفـاء التـي تحلّـى بهـا لأحبـّته وصحبه، وأسفه لفراقهم، فيقول :
يا ضاحكاً شاء الرحيلَ ودهرُنا يبكـي ونحـن بشـدّةٍ وبِضيـق
فجـّرتَ عندي للوفـاءِ جداولاً لعشيـر عمـرٍ مخلـص وصـديق
وأنا الوفيُّ فمـا جفَـوتُ أحبتّي يومـاً ولا واجهتـُهم بعقـوق
ومن السمـاتِ وشاجٌ ومن الوفا عهـدُ يؤلّـفُ أهلــه بوثيـق
زان الحياة على جميع شرورها ودٌّ وفـيٌّ أو حنــانُ شفيـق[٢٢]
وحين نقف عند قصيدة **(لغة السياط)** سنقرأ للشـاعر الشيخ الوائلي رحمـه الله، حالـة أخرى من الحالات التي طالما آلمته وشكّلت همّاً دائماً في وجدانه، ألا وهي حالة تبعثر الأمة وتمزّقها على وفق مـا أراده لهـا المستعمرون، وخنـوع أبنائها وعجزهم وتباغضـهم وقد تفرقوا مـذاهبَ ونِحـَلا حتـى ضـاعت أجزاء عزيزة من ديارهم أمام أنظارهم، فها هو يقول :
أي سـرٍّ فيمـا انتهينـا إليـهِ أنـا واللهِ أجهـلُ التعليــلا
قتلَتْنـا سيوفُنـا وقطعنـا رحِمـاً كان حبلـُه موصـولا
لعنـة اللهِ للسيـوفِ اللواتي ذبحـَتْ أهلـَها لتَشفي الغليلا
جمـع اللهُ شملنَـا وأراد الغــربُ تشتيتـَهُ فهـزّ الذيـولا
من أُنـاس تـرفّع الذمّ عنهم وأبـى أن ينـالَهـم تحليـلا

إبِلٌ ما لهم من الفقْهِ والقرآنِ شيءٌ ليعرفوا التدليلا

....

ثم يقول في ختامها :

أيها الوادعونَ من أجل ماذا قد حشَدتُمْ أسِنةً وخيولا

أوّل القبلَتين راحتْ ورُحتُم لم تسلّوا إلاّ اللسانَ الطويلا

لو صدقتُم عزيمةً لظفرتُم فأخو العزم يصنعُ المستحيلا(٢٣)

وبمثل معاني القصيدة آنفة الذكر وما حمّلها الشاعر الراحل من همومه، انطلق في قصيدته التي أعقبتها (خواطر في الليل)، والتي مما قاله فيها مواسياً قلبه المتعب :

قلبي وعفواً إذا ألححْتَ مشتكياً فعندكَ غيرُ سِرّي غيرُ منكتِمِ

وإنّ عُذرَ شكاتي أنّها لهَبٌ أطفيه بالبثّ كي أُنجيكَ من ضرَمِ

لقد خشيتُ بأن يأتي عليكَ كما أتى على الجسم من قَرن إلى قدم

لأنّ عندَكَ أحزاناً أُقدّسُها وذكرياتٍ بها زادي ومؤتدَمي

لم يبقَ لي حاضرٌ حلوٌ أعيشُ به ولا رجاءُ غدٍ أُنفي به سأمي

فعُدتُ أحضنُ ماضٍ فيكَ يُؤنسُني كالبرق يومِضُ في داجٍ من الظلُمِ

ثم ليروح مخاطبا قومه شاكياً ما صادفه منهم من ازورار عن الحق وتكالب على إراقة دماء بعضهم، وانشغال بالخُطب العصماء الرنانة عن مقارعة الأعداء والغاصبين وأكل حقوق الكادحين، خلافاً للشعارات التي يرفعها الحكّام، ليقول في مقطعها الأخير معرباً عن منهجه الإنساني القويم في الحياة وما يصبو إليه من عدالة ومساواة وانتصار للفقراء من الكادحين:

أوَيلاهُ ذكريات الأمس تغمرُني بالرائعاتِ وتجري نشوةً بدمي

هاتي ليَ البعضَ من أمسٍ مضى وخذي

عمري وما نلتُ من مالٍ ومن نِعَمِ

أيّامَ عيشي على ما فيه من يَبَسٍ بالٌ رخيٌّ وشملٌ غيرُ منتقِمِ

وللشبابِ أضاليلٌ وأخيلةٌ وأُمنياتٌ تدوسُ النجمَ بالقَدَمِ

وصفوة من رفاق في خلائقهم من خيرِ مَنْ ضمّتِ الدنيا من النسَمِ

والأرضُ يحكمها رهط وإن نزلوا لا يُنسَبون إلى ما جدَّ من نُظُمِ

لو ساوموني حصىً من تحت أرجُلِهم

بأنجُم الاشتراكيين لم أَسُمِ

الكاذبين على التاريخ والمثُل الغرّاءِ والعلمِ والأخلاق والقيَمِ

والحاملين شعار الكادحين وهُمْ محضُ افتراءٍ على العمّال متَّهَم(٢٤)

وثمة في هذا الجزء / الثاني من ديوان الراحل الكبير الدكتور الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله، الكثير جداً من الهموم الإنسانية المتنوعة في معانيها وتوجّهاتها الفكرية والقيميّة النبيلة، نجد إن خير ما

يلخّصها ويُبلغها شأوها في هذا البحث الذي لم نشأ أن نطيل فيه كلاماً وشواهد من أشعار الراحل، قوله هو رحمه الله تعالى في المقطع الأخير من قصيدته المقطعيّة المتعددة القوافي (سوانح) :

سألتْني الهمـومُ هل من مكانٍ غيرِ هذا القلبِ الذي ما تَهنّا؟

قلتُ مثوى وللحبِّ والشدوِ وغرّدْ به على البُعدِ عنّا

قلتُ قلبٌ بغير همّ بلا معنى ومَن لازَمَ العناءَ مُعَنّى

إسألِ العودَ دون شدٍّ وقرعٍ هل شدا في لحونِه وتغنّى؟[٢٥]

إن الشيخ الوائلي بهذا الشعر المتفجّر بالمعاني الإنسانية النبيلة، شاء أن يترك لمحبيّه ولمن يعرف موقعه الفكري والتوجيهي في خدمة الإسلام ومبادئه ورموزه الخالدة، ولمن لم يتعرّف عليه عن كثب واكتفى بالاستماع إلى أحاديثه ومحاضراته المنبرية، صورة عن نفسه التوّاقة إلى نشدان الخير وشيوع العدالة والتآزر الاجتماعي، تلك النفس التي لم يرهقها عنَت الحياة وما عاشته من قسوتها في إقامتها أو في ترحلّها الدائم، من أجل خدمة المنبر الحسيني (بل النبوي الشريف)، أو من أجل الابتعاد عن سطوة الحاكمين القساة، وسيظل اسمه خالداً في سجّل المفكرين مثلما سيظل خالدا بين أسماء الشعراء الذي أفرغوا همومهم في قصائد عبّرت عن الحياة بأفراحها وأتراحها، وسيظل له مكانه ومكانته وصوته في هذين المجالَين وفي سواهما من المجالات والميادين التي عرفته وعرُف بقدراته الثرّة فيها، وقد أغناها كلّها بعطائه الصادق صدق روحه التي توجهت إلى بارئها "راضية مرضيّة" مثلما تمنى لها دائما.

الهوامش :

(١) الشيخ أحمد الوائلي مفكّرا.. مربّيا...، ٥٧.

(٢) نفسه، ٧٧ مع هوامشها.

(٣)نفسه، ٣٠٤ وما بعدها مع هوامشها.

(٤) نفسه، ٧٥ مع هوامشها.

(٥) نفسه، ٩٧ وما بعدها.

(٦) تنظر : ديوان الشيخ أحمد الوائلي، ١/٥٥.

(٧) الشيخ أحمد الوائلي مفكّرا..، م. ن، ١٠٢ وما بعدها.

(٨) ديوان الوائلي، ١/ ٢٥.

(٩) نفسه، ٩٦.

(١٠) نفسه، ٩٨.

(١١) نفسه، ١٢٨.

(١٢) الديوان الثاني، ٩١.

(١٣) نفسه، ١١١.

(١٤) نفسه، ١١٧.

(١٥) نفسه، ١٢٤.

(١٦) ديوان الشعر الواله، ١٢٨.

(١٧) الديوان الثاني، م. س، ٨٥ وما بعدها.

(١٨) نفسه، ٨.

(١٩) نفسه، ١٥وما بعدها.

(٢٠) نفسه، ٢٥ وما بعدها.

(٢١) نفسه، ٣٢ وما بعدها.

(٢٢) نفسه، ٤٧ وما بعدها.

(٢٣) نفسه، ٥١ وما بعدها.

(٢٤) نفسه، ٥٥ وما بعدها.

(٢٥) نفسه، ٧٣.

مراجع البحث:

- ديوان الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، المكتبة الحيدرية، ج/١٤٢٤،١هـ.
- الديوان الثاني من شعر الشيخ أحمد الوائلي، الناظم الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط/ ١، د. ت.
- ديوان الشعر الوالِه في النبيّ وآله، الدكتور الشيخ أحمد الوائلي، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- الشيخ الدكتور أحمد الوائلي مفكّراً.. مربّياً.. خطيباً.. وشاعرا، الدكتور غانم نجيب عباس، بغداد، مكتب أحمد الدبّاغ، ٢٠٠٦.